نمـــاذج من القضـــايا النحوية
عند أبي حيان في البحر المحيط

إعداد

الباحثة/ سارة هشام حامد محمد
باحثة ماجستير بقسم اللغة العربية
كلية الآداب- جامعة أسيوط

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ....أما بعد

فإن من إعجاز كتاب الله العظيم توالي البحوث والدراسات التي تدور حول القرآن الكريم ،وما زالت لغته بجمال ألفاظها وفصاحتها ، ودقة تعبيراتها وبراعتها ، تدفع اولي الألباب إلى تأمل القرآن والبحث فيه ،ورغبتي في أن أكون من الناظرين في كتاب الله ، المتدبرين في رصف كلماته ، ونظم تراكيبه ، دفعتني الى أن أختار من جملة تفاسيره موضوعا للدراسة ، فاخترت تفسير (البحر المحيط)لأبي حيان الأندلسي ، حيث استرعى انتباهي كثرة مؤلفاته فقد وجدت محقق كتاب تقريب المقرب يذكر أن مؤلفات هذا الرجل وصلت إلى واحد وسبعين أثرا بين مطبوع ومخطوط ومفقود ،فهذا النحوي الجليل ارتشف العلم من علماء الأندلس الذين سبقوه والذين عاصروه وكانت نتيجة ذلك الحشد الكبير من المؤلفات في شتى صنوف المعرفة وخصوصا (تفسير البحر المحيط)موضوع البحث ، وفيما يلي عرض لبعض القضايا النحوية التي تضمنها البحث :

(١) <u>دلالة (إنما) على الحصر :</u>

تدخل ما على إن وأخواتها فتكفها عن العمل الذي كان لها، واختلف العلماء في دلالتها إذا دخلت على (إن) ،وهم في ذلك على ثلاثة أقوال :

<u>القول الأول :</u>

ذهب جمهور النحويين، من المتقدمين والمتأخرين ، وكذلك البلاغيون إلى أنها إذا دخلت على (إن) فإنها تفيد الحصر، والاقتصار على الشيء، بمنزلة (ما) و (إلا)، فقولنا (إنما الجالس عمرو) بمنزلة (ما الجالس إلا عمرو) [١].

---

(١) الكتاب لسيبويه ،تحقيق /عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ،القاهرة ،ط٣ ١٤٠٨ه ـ١٩٨٨م ،٢٣/٣. شرح الابيات المشكلة الاعراب المسمى بإيضاح الفعل لابي على الفارسي ،تحقيق /حسن هنداوي ، دار القلم ،دمشق ، ط١ ١٤٠٧ه-١٩٨٧م ، ٢٢٧.

القول الثاني :

ذهب ابن برهان إلي ان (إنما) لا تأتي للحصر وتبعه في ذلك أبو حيان ، حيث ذهبا إلي أنها لا تفيد الحصر بالوضع ، بل إذ فهم حصر فإنما يفهم من سياق الكلام. [١]حيث رأى أبو حيان أن المعنى الشرعي لا يصح مع حمل (إنما) و (أنما) على معنى الحصر في الآية لأن المعنى سيؤول إلى أنه لم يوح إلى النبي(ﷺ) إلا أمر التوحيد. وذلك لا يصح الحصر فيه، إذ قد أوحى له أشياء غير التوحيد.... [٢].

القول الثالث:

ذهب ابن عطية مذهباً وسطاً في هذه المسألة؛ حيث يقول[٣]: (إنما) لفظ لا يفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع، ويصلح مع ذلك الحصر، فإذا دخل في قصة وساعد معناها على الانحصار صح ذلك وترتب، كقوله تعالى: " إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ"[٤] وغير ذلك من الأمثلة، وإذا كانت القصة لا تتأتى للانحصار بقيت إنما للمبالغة فقط، كقوله عليه الصلاة السلام: "إنما

الجنى الداني للمرادي ٣٩٦/١ ، مغني اللبيب لابن هشام ٥٩/١ ، همع الهوامع للسيوطي ٥١٨/١ .

(١) شرح اللمع لابن برهان ٧٥/١.

(٢) البحر المحيط ٣١٨/٦.

(٣)المحرر الوجيز ٣١٧/٤، الجنى الداني ٣٨١.

(٤) سورة النحل من الآية ٥١.

الربا في النسيئة" [١] كذلك ذهب الرازي في تفسير قوله تعالى: " إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ" [٢] إلى أن لفظه (إنما) لا تفيد الحصر ليبطل بذلك دلالة الآية على ولاية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام – واستدل على مختاره بالآية التالية:

" إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[٣]

وجه الاستدلال: أن حال الدنيا ليس منحصراً بما جاء في هذا المثل، بل يمكن بيان حال الدنيا بتمثيلات أخرى:

١. " إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ"[٤]

٢. " وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ"[٥]

---

(١) رواه مسلم في كتاب البيوع، باب بيع الطعام مثلاً بمثل ٥/٥٠، والنسائي في كتاب البيوع. ٧/٢٨١ والترمذي في كتاب البيوع، باب ما جاء في الصرف ٣/٥٣٤.
(٢) المائدة ٥٥.
(٣) يونس ٢٤.
(٤) محمد ٣٦.
(٥) الحديد ٢٠.

إلى غير ذلك من الأمثال الواردة في الكتاب والسنة والأدب العربي بغية بيان حال الدنيا وهذا آية عدم الحصر[١].

المناقشة والترجيح:

حاول أبو حيان إثبات عدم دلالة (إنما) على الحصر مستدلاً على ذلك بالقرينة الشرعية مخالفاً بذلك رأي الجمهور الذي قال بدلالتها على الحصر، ولكنني أرى أن محاولة أبي حيان تغليب القرينة الشرعية على ما عداها هي التي جعلته يميل إلى هذا الرأي، حيث اضطرب موقفه حول تلك المسألة فنجده يقول بأنها لا تدل على الحصر في قوله تعالى: " إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ"[٢] ، يقول أبو حيان: "(إنما) هنا ليست للحصر لا وضعاً ولا استعمالاً؛ لأنه ضرب للحياة أمثالاً غير هذا"[٣] .

ثم عاد واعترف صراحة بدلالتها على الحصر أخذاً برأي الجمهور ،وقال أيضاً: (وليست إنما للحصر، إنما هي للمبالغة في التوكيد[٤] وقد صرح

(١) مفاتح الغيب للرازي ٣٠/١٢ بتصرف وإيضاح.
(٢) يونس (٢٤).
(٣) البحر المحيط ١٤٤/٥.
(٤) البحر المحيط ٨٨/٥.

باختياره هذا في مواضع من تفسيره البحر المحيط[١]، وفي كتبه الأخرى[٢]، كما نسب هذا الراي إلى سيبويه[٣].

،وبالرغم من أن ما ذكره أبو حيان فيما يخص آية الأنبياء من انحصار الوحي بالوحدانية يعد من الأمور التي انفرد بها أبو حيان ونبه عليها ،ولكنه مردود بأن الحصر هنا مجازي باعتبار المقام. [٤]

وقد ذكر الدكتور فاضل السامرائي شواهد من الذكر الحكيم لا يستقيم المعني فيها إلا بالحصر. [٥] منها قوله تعالى:" ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون " يقول الدكتور فاضل في تفسير هذه الآية:" أي لا يأمركم إلا بذلك ولا يأمر بالخير"[٦].

في ضوء ما سبق تميل الباحثة إلي ترجيح رأي الجمهور وهو دلاله (إنما) على الحصر لأنه مقدم على سواه، ولم يخالف القرينة الشرعية، ولم يقم الدليل على خلافه.

---

(١) البحر المحيط ١٤٢/٥، ٣٤٤/٦.
(٢) ارتشاف الضرب ١٥٧/٢، التذييل والتكميل ٢٨٩/١.
(٣) التذييل ٢٨٦/١ التصريح لخالد الأزهري ١٠٦/١.
(٤) معترك الأقران ١٣٨/١-١٣٩.
(٥) انظر معاني النحو للسامرائي ٣٥٥/١.
(٦) المرجع السابق ٣٥٥/١ .

(٢) دلالة الواو العاطفة على الترتيب:

اختلف العلماء في دلالة الواو العاطفة ولهم فى ذلك ثلاثة أقوال:

القول الأول:

إنها تدل على مطلق الجمع من غير إشعار بخصوصية المعية أو الترتيب ومعنى ذلك أنها تدل على التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم الذى أسند إليهما من غير أن يدل على أنهما معاً بالزمان أو أن أحدهما قبل الآخر، يقول سيبويه:"(مررت برجل وحمار) فالواو أشركت بينهما، فلم تجعل للرجل منزلة بتقديمك إياه على الحمار،إذا لم ترد التقديم في المعنى، وإنما هو شيء في اللفظ ، كقولك(مررت بهما)" [١]

ومن الشواهد الشعرية التي تدل على أن الواو لمطلق الجمع "الكامل"

أُغْلِي السِّبَاءَ بِكُلِّ أَدْكَنَ عاتِقٍ أَوْ جَوْنَةٍ قُدِحَت وفُضَّ خِتامُها[٢]

لأنه من المعلوم أنه لا يقدح إلا بعد فض الختام[٣]

---

(١)الكتاب لسيبويه١/٤٣٧ .

(٢) البيت للبيد بن ربيعة في ديوانه ص٣١٤ ، وأسرار العربية لابن الأنباري٣٠٣، خزانة الأدب للبغدادي٣/١١،١٠٥/٣، وسر صناعة الإعراب لابن جني٦٣٢

أغلي: أرفع ، السباء :الشراء ، الأدكن: الرق الأغبر ، العاتق : الخالص ، الجونة :الخابئة المطلية بالقار ، قدحت :غرفت ، وفض ختامها : كسرت طينتها .

(٧)أسرار العربية لابن الأنباري ٢٦٧ ، اللباب للعكبري٤١٦

القول الثاني :

إنها للترتيب مطلقاً سواء كانت عاطفة في المفردات أو في الجمل ، وهو قول بعض الكوفيين منهم ثعلب، وابن درستويه، وقطرب ، والربعي ، والفراء ، وأبو عمر الزاهد، وهشام الشافعي . (١).

اعترض أصحاب هذا القول على أصحاب القول السابق بالقرينة الشرعية أيضًا حيث يقول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ" (٢).

وقوله تعالى:"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا"(٣)، والركوع يكون قبل السجود(٤)، ورد عليهم بأن الترتيب مستفاد من دليل خارجي، وهو ما ثبت في السنة من أن الركوع يكون قبل السجود، واستدلوا بأن عبد بني الحسحاس أنشد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : " الطويل "

---

(١) مجالس ثعلب ٣٨٦ ، شرح المفصل لابن يعيش ١٠/٥ ، شرح الكافية الشافية لابن مالك ٨١/١ ، شرح قطر الندى لابن هشام ٣٠٢/١، مغني اللبيب لابن هشام ٤٦٤/١ ،شرح ألفية ابن مالك للحازمي الدرس رقم ٩٣

(٢) المائدة ٦

(٣) سورة الحج آية ٧٧

(٤) أثر النحو والبلاغة في الأحكام الفقهية د/ هارون محمد بدر الدين جامعة التبرا ص ٣٣

عُميرةَ وَدِّعْ إنْ تَجَهَّزْتَ غَادِياً " "

كفى الشيبُ والإسلامُ للْمَرْءِ ناهيا[١]

فقال عمر: لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك فدل على أن الواو للترتيب[٢].

القول الثالث :

إن الواو للجمع بقيد المعية فإذا استعملت فى غير ذلك يكون مجازاً ويعزى هذا إلى بعض الحنفية وأنكره عنهم إمام الحرمين وغيره وقالوا إنهم لم يتعرضوا لغير كون الواو للجمع من غير تعرض لاقتران ولا ترتيب[٣].

المناقشة والترجيح :

اختار أبو حيان أن تكون الواو للترتيب في آية الوضوء ، حيث رأى أن ظاهر الكلام يدل على ذلك ، وصرح باختياره لمذهب الإمامين ، أبي حنيفة ومالك ، يقول أبو حيان : "ولا دليل في قوله في الآية عَلَى أَنَّ مُوَالَاةَ أَفْعَالِ

(١) البيت لسُحيم عبد بني الحسحاس في ديوانه ص١٦، خزانة الأدب١ للبغدادي/١٦٧،الكتاب ٢٦/٢، سر صناعة الإعراب لابن جني١٤١/١،وشرح التصريح للأزهري ٨٨/٢
(٢) التبصرة للفيروز أبادى ج ١ صـ٢٣٣
(٣) الفصول المفيدة فى الواو المزيدة ج ١ صـ٧٠

الْوُضُوءِ لَيْسَتْ بِشَرْطٍ فِي صِحَّتِهِ لِقَبُولِ الْآيَةِ التَّقْسِيمَ فِي قَوْلِكَ: مُتَوَالِيًا وَغَيْرَ مُتَوَالٍ، وَهُوَ مَشْهُورُ مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِك " [١] ، وقد أظهر فى ارتشافه موافقته على إفادتها للترتيب في بعض المواضع و ولم يجز إفادة الواو الترتيب على إطلاقه، وهذا ما فهمته الباحثة من كلامه حيث قال[٢]: (وما ذكره السيرافي، والسهيلي من إجماع النحاة بصريهم وكوفيهم على أن (الواو) لا توجب تقديم ما قدم لفظه ، ولا تأخير ما أخر لفظه غير صحيح لوجود الخلاف في ذلك).

وعند تفسيره لآية الوضوء في سورة المائدة يقول: (ولا دليل ف قوله: في الآية على أن موالاة أفعال الوضوء ليست بشرط في صحته لقبول الآية التقسيم في قولك: متوالياً وغير متوالٍ وهو مشهور مذهب أبى حنيفة ومالك ، وروى عن مالك والشافعي في القديم انها شرط و وعلى أن الترتيب في الأفعال ليس بشرط لعطفها بالواو وهو مذهب مالك وأبى حنيفة و ومذهب الشافعي أنه شرط)[٣].

يتضح من كلام أبى حيان أنه لا يؤيد رأياً بعينه، بل وقف من هذه المسألة موقفًا وسطًا، لم ينفِ دلالة الواو على الترتيب ولم يثبتها، وأغلب

(١)البحر المحيط ٤/١٩٢_١٩٣
(٢) ارتشاف الضرب لأبى حيان صـ ١٩٨٢
(٣) البحر المحيط ج ٣ صـ ٤٥٢

الظن أنه قد اقتنع في هذه الآية بأدلة أبى حنيفة ومالك في عدم اشتراطها الترتيب في الوضوء ولكنه لم يمنع دلالتها على الترتيب في موضع آخر، كذلك لم يخطئ الشافعي الذى اشترط الترتيب في الوضوء ، وفي قوله تعالى "يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين " [١] ظهر رأي أبي حيان في هذه المسألة بوضوح، لأن بعض النحاة المتأخرين ذهبوا في هذه الآية إلى ترجيح المعية في الواو على تقديم السابق على تقديم اللاحق[٢] ، فضَعَّف أبو حيان هذا القول بقوله : " ولا التفات إلى قول بعض أصحابنا المتأخرين في ترجيح المعية على تقديم السابق وعلى تقديم اللاحق، فإن سيبويه ذكر أن الواو يكون معها في العطف المعية وتقديم السابق وتقديم اللاحق، يحتمل ذلك احتمالات سواء فلا يترجح أحد الاحتمالات على الآخر " [٣]

في ضوء ما سبق تميل الباحثة إلى ترجيح القول الأول وهو القائل بأن الواو تدل على مطلق الجمع ولا تدل على الترتيب لأنه قول الجمهور وهو مقدم على ما عداه من آراء، كذلك دلت عليه بعض آيات القرآن ،

---

(١) آل عمران٤٣
(٢) همع الهوامع للسيوطي١٢٨/٢
(٣) البحر المحيط ٤٥٧/٢

وأشعار العرب ، ولم يخالف هذا الرأي المعنى الشرعي لآية الوضوء، بل أجاز البعض صحة معنى الآية في ضوء القول الأول..... والله أعلم.

(٣) خروج (حيث) عن الظرفية :

الأصل في حيث أنها ظرف مكان[١]،واختلف العلماء في إعراب (حيث) في قوله تعالى " اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ "[٢] لأن إبقاء (حيث) على ظرفيتها يجعل المعنى يؤول إلى أن علم الله يتفاوت بحسب الأمكنة ، فيكون في بعض الأمكنة أعظم من غيرها ، وهذا لا يصح ، وهم في إعرابها على قولين :

القول الأول :

ذهب أبو علي الفارسي وتبعه في ذلك ابن مالك وابن يعيش إلى أن (حيث) في الآية قد خرجت عن الظرفية وأنها تعرب مفعولاً به لفعل

(١)الكتاب لسيبويه ٢٢٣/٤ ، المقتضب للمبرد٥٤/٢ ،المنهاج المختصر في علمي النحو والصرف للجديع العنزي ،مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ، ١٠١/١ ، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام١٠٥/٣ ، شرح شذور الذهب للجوهري٢٨٨/١ ، فتح المتعال على القصيدة المسماة بلامية الأفعال لحمد الرائقي الصعيدي ، تحقيق/ إبراهيم بن سليمان البعيمي ، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤١٨ه ،٢٢٧/١

(٢) الأنعام (١٢٤) .

محذوف دل عليه (أعلم)، والمعنى: " الله يعلم مكان رسالاته وأهل رسالاته " (١).

استدل أصحاب هذا القول بالقرينة الشرعية ، ففي رأيهم القول بإعراب (حيث) ظرفا يجعل المعنى الشرعي يؤول إلى أن علم الله متفاوت بحسب الأمكنة كما ذكرنا ، فلجأوا إلى القول بإعرابها مفعولا به عملا بالقرينة الشرعية.

القول الثاني :

ذهب أبو حيان والدماميني والأزهري وغيرهم إلى أن (حيث) في الآية باقية على أصلها ، فهي عندهم ظرف غير متصرف ، ثم اختلفوا في تخريج معنى الآية على قولين :

الأول :

وهو ما ارتضاه أبو حيان من أن (أعلم) قد تضمن معنى (أنفذ) ويكون التقدير كما قال : " الله أنفذ علماً حيث يجعل فيه رسالته ، والظرفية

(١) إيضاح الشعر ص ٢٠٦ ، كشف المشكلات وإيضاح المعضلات ص ٤٢٨ . شرح كافيه ابن الحاجب ٢٦٤/٣

هنا مجاز..."[١] ويفهم من قوله (أى : هو نافذ العلم) أنه لا يقصد من (أنفذ) التفضيل والتفاوت ، وإنما معنى الوصف بالنفاذ .

والثاني :

وهو ما ارتضاه الدماميني و وافقه الأزهري بأن المراد : يعلم الفضل الذى هو فى محل الرسالة وفيه إبقاء (حيث) على ما عهد من ظرفيتها ، والمعنى : أنه تعالى لن يؤتيكم مثل ما آتى رسله من الآيات ؛ لأنه يعلم ما فيهم من الذكاء والطهارة والفضل والصلاحية للإرسال ، ولستم كذلك [٢].

المناقشة والترجيح :

إن الأصل في حيث أنها ظرف غير متصرف ، والقول بإعرابها مفعولاً به في الآية يخرجها عن أصلها ، لذا قال أبو حيان رداً على من قال بمفعوليتها في الآية :

(١) البحر المحيط ٢١٩/٤ .
(٢) تحفة الغريب ص ٢٥٥ ، عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك ٢٣٥/٢ .

" وما قاله (يعنى الحوفي) من أنه مفعول بـه علـى السـعة ، أو مفعول به على غير السعة تأباه قواعد النحو ، لأن النحاة نصوا على أن (حيث) من الظروف التي لا تتصرف [١]، لذا جعل ابن مالك تصرفها مـن النادر بقوله : " ونادر التصرف كحيث ... " [٢]، ونقل الأزهري عن المبرد قوله : " لم تجئ (حيث) فاعلاً ولا مفعولاً بها ولا مبتدأ وأرى أن حمـل أبى حيان لـ (حيث) على الظرفية المجازية هو أحسن الأقوال وهو مـا ارتضاه صاحب كتاب إعراب القرآن وبيانه ، حيث نقل عن أبى حيان القول السابق ، ونقل أيضاً عن السفاسقي أنه قال عن إعراب حيـث فـي هـذه الآية: " والظاهر أنه باق على معناه من الظرفية ، والإشكال إنما يرد مـن حيث مفهوم الظرف ، وكم من موضع ترك فيه المفهوم لقيام الدليل عليه ، لاسيما وقد قام في هذا الموضع " [٣].

يظهر لي من خلال ما سبق أن الراجح ما اختاره أبو حيان لأن قوله يبقى (حيث) على ظرفيتها ، وبقاء الشيء على أصله أولـى وخاصـة إذا ضمن سلامة المعنى ، وكذلك لأن قوله (أعلم) بمعنى (أنفـذ) علـى ألا

---

(١) البحر المحيط ٢١٨/٤ .
(٢) شرح التسهيل ١٥٦/٢ .
(٣) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش ٢١٩/٣ .

يراد معنى التفضيل يسلم مما فر منه أصحاب القول الأول ويكـون جوابـاً على استدلالهم بالقرينة الشرعية ، وقد سلم قوله من دعوى الحذف التـي أخذت على قول الدماميني ومن وافقه.